

تأثير الحضارة المصرية على جنوب مصر

" بلاد النوبة وسودان وادى النيل "

فى العصور الوسطى

الأستاذ الدكتور/ محمد نصر مهنا

أستاذ العلوم السياسية ووكيل

كلية التجارة بجامعة أسيوط

بلاد النوبة - بعض الملاحظات الجيوبوليتيكية :

استأثرت " بلاد النوبة " - سودان وادى النيل - باهتمام الباحثين فى مختلف العلوم الاجتماعية نظرا لما تمثله من تواصل الحضارات وما مرت به من منعطفات تاريخية وجيوبوليتيكية كان لها تأثير متعاظم على جنوب وادى النيل والقارة الأفريقية برمته بصفة عامة . وارتباطها العضوى بمصر بمكانتها الحضارية وبما تمثله مصر من موقع متميز باعتبارها ملتقى الطرق التجارية العالمية .

والواقع أن ما نعينه ببلاد النوبة فى هذه الدراسة هو " سودان وادى النيل " منذ العصور القديمة مرورا بفترتى التاريخ الوسيط والحديث ، غير أن هذه الدراسة تتركز بالدرجة الأولى على فترة حكم المماليك لمصر منذ العصور الوسطى وحتى فجر التاريخ الحديث " .

تمثل بلاد النوبة (سودان وادى النيل) الامتداد الطبيعى للحدود المصرية الجنوبية كما تمثل أيضا خط الدفاع عن تلك الحدود بما يترتب عليه من سلامة جنوب مصر والأمن القومى مما يؤكد حرص مصر على بلاد النوبة وسودان وادى النيل وقد بذل حكام مصر جهودا كبيرة فى الحفاظ على سلامة الحدود ، وفى هذا السياق فقد انقسمت بلاد السودان إلى ثلاث دول نوبية :

الأولى : وهى من الممالك البائدة قبل الإسلام . وكانت تسمى نوباديا وعاصمتها فرس وتقع فى الشمال .

الثانية : تقع فى إقليم دنقلة وتسمى المقبرة وعاصمتها دنقلة العجوز .

الثالثة : علوة وعاصمتها سويّا وكانت تقع على الشاطئء النيل الأزرق الشرقى ، جنوبى مدينة الخرطوم الحالية بقليل ، وكانت هذه الممالك تدين بالمسيحية . (١)

ومن المعروف أن حدود بلاد النوبة تمتد من مصر حتى النيل الأزرق وهى التى شهدت قيام ممالك النوبة المسيحية التى عاصر بعضها دولة الممالك فى مصر . (٢)

امتدت حدود بلاد النوبة أول عصر الممالك حتى مديرية أسوان كما امتدت جنوبا حتى حدود بلاد الحبشة ، وكانت تحكم بواسطة ملوك ، وكان أول صدام حدث بين مصر وتلك البلاد فى عصر صلاح الدين الأيوبى حين أراد أن يكون من السودان جيشا يقاوم به الممالك الأتراك الذين كثر عصيانهم وتمردهم . وتوالى الغزوات بعد ذلك على بلاد النوبة ، وكانت تقوم لأسباب متعددة كشن الغارات عليها لردع ملوكها كثيرى التحرش بالحدود المصرية وخاصة بمنطقتى أسوان وعيذاب ، أو لنصره ملك من ملوكها على الآخر . (٣)

واستمر النزاع بين مصر وممالك النوبة إلى أن حكم الممالك مصر ، ودخلوا فى صراع مع ملك النوبة وشهدت العلاقات السياسية بين مصر فى عصر دولة الممالك وبين بلاد النوبة استتباب الأمور ، فبعد استقرار الملك الظاهر بيبرس (٦٦٠ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٨ م) فى الحكم بدأ يوجه اهتمامه الى جنوب الوادى وبصفة خاصة لوضع حل لمشكلة الحدود الجنوبية فى الوقت الذى أغار فيه ملك النوبة على قوص وأسوان وهو ما يقتضى وقفة للتفسير .

الاحتكاك الحربى :

كان فى هجوم النوبيين على عيذاب (٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م) بداية الاحتكاك الحربى المباشر مع القوة المملوكية الشابة الموجودة فى مصر وتعدى على مصالحها الاقتصادية ، ومن ثم بدأت العلاقات تأخذ شكلا جديدا مغايرا للشكل الذى كانت عليه من قبل مما سيكون له أبعاد الأثر فى انتشار الإسلام فى بلاد النوبة وسودان وادى النيل . (٤)

وقد أدرك السلطان الظاهر بيبرس والإدارة المملوكية المغزى وراء هجوم ملك النوبة على ميناء عيذاب ، وأن هدفهم هو شن حرب إقتصادية على مصر عن طريق التعرض للتجارة المملوكية التى تسلك الصحراء الشرقية عن طريق عيذاب . إلى البحر الأحمر ويذكر

الأب الدكتور (ج.فانتيني) فى كتابه تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية والسودان الحديث :
أن الشرارة التى أزكت نار الحرب بين النوبة وسلطين الممالك فى سنة (١٢٧٥/٦٧٤م)
نتجت عن قيام داود الأول ملك النوبة بغزوتين الأولى على ميناء عيذاب على البحر الأحمر
أهم الموانئ المصرية وتحويل داود الأموال والقوافل التجارية الواردة من الهند وسائر بلاد
الشرق إلى مملكته .

أما الغزوة الثانية فقد كانت على مدينة أسوان حين غزاها الملك داود الأول سنة
(١٢٧٥هـ/١٢٧٥م) ودخلها وخرب بيوتها وسبى نساءها وأحرق السواقي واستطاع أن يلحق
بأهلها أضرار كبيرة وكانت أسوان فى ذلك الوقت تعج بالأسواق ومخازن المؤن ويرجع
(ج. فانتيني) الدافع وراء قيام الملك النوبى داود الأول للقيام بهذا العمل إلى انعقاد المجمع
المسكونى السابع فى مدينة ليون بفرنسا (٥) ذلك المجمع الذى حضره ألف من رجال الكنيسة
والملوك والأمراء من الكاثوليك الغربيين وعدد من المسيحيين الشرقيين وملك القسطنطينية
كلهم جاءوا بدعوة من البابا غريغوريوس العاشر الذى سبق أن كان سفيراً مقيماً فى أرض
الصلبيين بفلسطين وخبيراً فى شئون الشرق ، وقرر المجمع إعداد حملة صليبية شاملة يشترك
فيها جميع الملوك ويرجح أيضاً الأب (ج.فانتيني) (٦) وجود اتفاق سرى بين ملك النوبة
ومسيحي الغرب وكان من شروطه أن يقوم ملك النوبة بفتح جبهة جنوبية لمحاربة مصر بينما
تتحرك القوى الغربية إليها من الشمال ، ومن هنا فإن سلطان مصر قد شعر بالأمر وخطط
للقضاء على قوات العدو قبل أن تجتمع حول مصر والقيام بتدميرها . ولأسباب تصمت عنها
المصادر لم تتحرك القوات الغربية ولم تتم الحملة الصليبية حسب القرارات المسكونية إلا أن
الملك النوبى تحرك من الجنوب وبدأ الحرب الاقتصادية والاحتكاك الحربى لشن هجومه على
عيذاب ليقطع اتصالات مصر بالبحر الأحمر ودول الشرق وبالهجوم على أسوان حتى يضمن
تخريب المدينة وتعطيل الحامية المملوكية من مباشرة أعمالها الدفاعية ويسد الطريق وبالتالي
على الممالك إلى أفريقية أو إلى مهاجمته فى بلاده ورأت السلطة المملوكية تدعيم قوتها ببسط
نفوذها على ساحل البحر الأحمر الأفريقى ، فقد كان هذا يشكل أهمية كبرى للممالك لما
يؤديه من دور هام فى اقتصاديات مصر والعالم فى العصور الوسطى فلا يمكن للإدارة
المملوكية فى القاهرة أن تسمح بتهديد أمن الموانئ المطلة على هذا البحر . وكان رد فعل
السلطان الظاهر بيبرس لتأديب ملك النوبة أن جهز حملة عسكرية كلفها بهذا العمل وقد ذكرت
المصادر الإسلامية النص الكامل لهذه المبادرة فذكر النويرى وابن القرات أن الظاهر بيبرس
كلف " الأمير شمس الدين أفسنفر الفارقانى والأمير عز الدين أيبك الأقرم وصحبتهما جماعة

من العسكر من أجناد الولايات والعربان بالوجه القبلى ، واتفق مع الرماه ورجال الحواريق وجهازت الزردخاناه وجهاز صحبه العسكر وأطلق معهم مشكدا وأمرهم اذا فتحوا الباب أن يسلموها اليه " ويدل هذا النص على مدى حرص السلطان بيبرس على الدفاع عن حدود مصر وتأييد ملك النوبة . (٧)

وتحقق لأول مرة للادارة المصرية السيطرة التامة على بلاد السودان والنوبة حيث يعتبر ابن الفرات هذه الحملة فتحا حقيقيا لبلاد النوبة . إلا أن المناوشات ستجدد مرة أخرى فى عهد خلفاء الظاهر بيبرس حيث انتقل الملك الى المنصور قلاوون (٦٢٦هـ / ١٢٢٧م) بعد وفاة السلطان الظاهر بيبرس وقد ظل ملوك النوبة يقدمون فروض الطاعة لسلطان مصر . (٨)

وبلغ النفوذ المملوكى فى النوبة حدا أقنع ملوك النوبة بقوة السلطنة المملوكية ، فأخذوا يتعاملون بأسلوب جديد وهو : إرسال السفراء المحملين بالهدايا ليثبتوا ولاءهم للمماليك بل كانوا يحكمون السلطان المملوكى فيما ينشب بينهم من خلاف . (٩)

مظاهر العلاقات النوبية بين مصر وبلاد النوبة :

شهدت سياسة المماليك تجاه النوبة منعطفًا هامًا فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ارتبط بقيام دولة الكنز فى دنقلة وبهذا تقوم دولة مسلمة فى بلاد النوبة حيث كان الكنوز قد ملكوا بلاد النوبة من أخوالهم ملوكها وولى عرش دنقلة ملكا مسلما من أصل ونسب عربى صحيح .

ونترك القلقشندى يفسر ذلك قائلا : ملك النوبة هو صاحب مدينة دنقلة ، وهو رعية من رعايا صاحب مصر وعليه حمل مقرر ، يقوم به فى كل سنة ، ويخطب ببلادة لخليفة العصر وصاحب مصر " . وكانت تلك الأتاوة مقررة عليهم من زمن الفتح ، فى اماره عمرو بن العاص رضى الله عنه ثم صارت تنقطع تارة أخرى بحسب الطاعة والعصيان . (١٠)

وبهذا أصبحت لمصر مكانة سامية فى تلك الاتجاهات النوبية فقد حرص ملوكها على دفع الأتاوات المفروضة عليهم ولم يقتصر الأمر على ذلك بل صار الخطباء فى بلاد النوبة المسلمة ومنذ ولبها ملوك مسلمون يدعون على المنابر للخليفة العباسى بالقاهرة والسلطان المملوكى .

وسارت العلاقات بين مصر وسلاطين المماليك خلال العهد المملوكى الأول ما بين سياسة
حكمة من جانب النوبة والتزامهم بالشروط والمعاهدات بينهم وبين مصر المملوكية .

وتتحدث المصادر الاسلامية عن بعض المناوشات التى كانت تقوم على الحدود المصرية
مع بلاد النوبة وأحيانا كان يتطور الأمر بوصول الكنوز ملوك النوبة ومعهم بعض الأعراب
من بنى الكنز أو غيرهم من الأعراب الذين يقطنون جنوب الوادى وصحراء مصر الشرقية
إلى أسوان وقوص فينتقم النائب المملوكى للتصدى لهم . (١١)

وفى العصر المملوكى الثانى تختلف العلاقات بين مصر وبلاد النوبة عما كانت عليه فى
العصر المملوكى الأول وسادت تلك العلاقات والمناوشات الدائمة وخاصة تلك التى كان يقوم
بها بعض قبائل الأعراب فى أسوان وعلى امتداد الحدود المصرية النوبية . (١٢)

وتعد السفارات والرسائل التى تصل إلى القاهرة فى ذلك الوقت دلالة قاطعة على امتداد
النفوذ المملوكى المصرى إلى بلاد النوبة واعتراف ملوكها بالفضل والولاء للسلطان
المملوكى ، وقد ظهرت العلاقات الودية فى أروع صورها وخاصة بعد أن آل الحكم النوبى
للبيت الكنزى وأولاد كنز الدولة المسلمين فقد قامت بينهم وبين مصر علاقات طيبة ومتنوعة
سادها حسن الجوار وتقديم فروض الولاء والطاعة للسلطان المصرى ، وأصبحت المساجد
النوبية تردد فى خطبها الدعاء لخليفة العصر وصاحب مصر " (١٣)

الأوضاع الاجتماعية :

تمثل دراسة الأوضاع الاجتماعية فى بلاد النوبة صعوبة كبيرة بالنسبة للدارسين وذلك
لقلة المادة العلمية التى تمدنا بها المصادر ومن الملاحظ أن المصادر الاسلامية والمراجع
الحديثة العربية منها والأجنبية تعتمد أساسا على مشاهدات الرحالة والجغرافيين . وينتظم
المجتمع النوبى فى طبقات مختلفة تعد محورا أساسيا فى تكوين البناء الاجتماعى له وتعددت
عناصر السكان داخل المجتمع النوبى الا أن أهم عنصرين شكلا المجتمع النوبى ، هم السودان
من النوبة ، والأعراب من العرب الذين نزحوا الى بلاد النوبة فى هجراتهم المتعددة . (١٤)

وكان السكان من النوبة يشكلون الغالبية العظمى من السكان وعامة الشعب وكان منهم
الأمراء والملوك قبل استيلاء بنوكنز عليها وتحويلها الى مملكة اسلامية .

أما الأعراب الذين نزحوا الى بلاد النوبة فقد كان غالبيتهم من قبائل عربية نزحت واستقرت هناك وأهمها قبيلة الكنز التي نزحت حوالي عام (٧٩١هـ / ١٣٨٨ م) وانتشروا في تلك الأماكن واختلطوا بالسكان وكونوا معهم قرابة ونسب ، وهاجرت قبائل عربية أخرى من الجزيرة العربية ومن بلاد المغرب (١٥) فقد استقرت قبائل ربيعة في تلك المناطق التي بين عيذاب وسواكن وتحالفوا مع السكان الأصليين من جنس الحدارب وأثروا فيهم تأثيرا قويا حتى اعتنقوا الاسلام وقبائل جهينة التي كونت عنصرا هاما من عناصر السكان في بلاد النوبة ، وهكذا تكون المجتمع النوبي من عناصر عدة من الأعراب الى جوار السكان الأصليين من النوبة السودان والقبائل النوبية المعروفة في ذلك الحين منهم الحدارية ، والرفانج وقبائل الكارثينا تلك القبائل التي ذكرها المؤرخون بمسمياتها ، ومن الممكن القول أن الأصل في تسمية هذه القبائل يعود الى اللغات النوبية والتي لا تعرف أصولها الا أن هذه القبائل قد اكتسبت اللغة العربية بجوار لغاتهم الأصلية (١٦)

على أن الأصول العربية في بلاد النوبة لم تكن تقتصر على بنى الكنز فقط بل من الممكن القول أن انصهارا واضحا قد حدث بين القبائل النوبية فاختلطت العناصر البشرية حتى لم يعد من الممكن أن نفرق بين العرب وأهل البلاد الأصليين لكنه من الملاحظ أن هذه القبائل العربية شكلت طبقة من الطبقات الكبرى في بلاد النوبة كانت ترقى إلى مرتبة الأمراء . (١٧)

ويذكر المؤرخون المسلمون أن القبائل العربية قد نزحت الى بلاد النوبة وأوضحوا أنها كانت تعيش في بلدان صعيد مصر وقوص قبل أن ينزحوا إلى بلاد النوبة طلبا للمرعى ومن هذه القبائل أولاد عمرو وأولاد شيبان وأولاد الكنز وبنى هلال ومن الجدير بالإشارة الى أن النزوح الأكبر للقبائل العربية كان في القرن الثاني عشر الميلادي وذلك في حملات صلاح الدين الأيوبي على بلاد النوبة في عام (٥٦٨ - ٥٦٩ هـ / ١١٧٢ - ١١٧٣ م) حيث استولى الجيش الأيوبي على قلعة ابريم وتمركزت القبائل العربية في بلاد النوبة وخاصة بنو الكنز والجهينيون والهواره (١٨)

واتخذت القبائل العربية مكانة هامة داخل المجتمع النوبي وصارت من أهم فئاته التي أثرت في الحياة الاجتماعية ، فكانوا يحتلون بجانب الملك والأمراء مكانة مرموقة داخل المجتمع النوبي بل وصارت لهم كلمة مسموعة تؤثر تأثيرا ايجابيا في مجريات الأحداث ومقررات الأمور في هذا المجتمع الذي أنضموا تحت لوائه واتخذوا منه مسكنا ودارا لهم (١٩)

رجال الدين :

شكل رجال الدين المسيحي طبقة هامة فى طبقات المجتمع النوبى ، ويمكن القول أن هذه الطبقة كانت من أهم طبقاته ، وتتكون من الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهبان وكان الأساقفة يعينون من قبل بطريرك الاسكندرية وتتمثل أهمية رجال الدين فى المجتمع النوبى فى أنهم كانوا يقومون بتتويج الملك (٢٠) ، والخروج معه فى الحروب يحملون معهم الصليب الفضى بالإضافة الى ممارسة واجباتهم الدينية داخل المجتمع النوبى (٢١) .

وكانت مراسم تتويج الملك تتم داخل كنيسة أسوس وهى أكبر الكنائس فى النوبة حيث كانوا يقومون بإلباسه التاج ومعهم الصليب المقدس ، ويقوم الملك بحلف اليمين المقدس لرعاية رعيته ثم يمد السمات احتفالاً بتلك المناسبة (٢٢) .

وكان الأساقفة ورجال الدين يسكنون فى الكنائس والأديرة الخاصة بهم كما كانوا يتخذون من المدن النوبية مقراً لهم ، ومن أهم هذه المدن التى وجد بها الأساقفة دنقلة وبلق وعلوه ومدينة بساى وهى آخر مدن النوبة حيث وجد بها أسقف يدين بالنصرانية على المذهب اليعقوبى ، وهذا المذهب هو السائد فى بلاد النوبة والحبشة (٢٣) .

وصارت هذه الطبقة من الطبقات العليا فى سلم الحياة الاجتماعية النوبية ، الى أن جاء بنو الكنز واستولوا على عرش النوبة ، ودانت لهم البلاد وتحولت مملكة النوبة المسيحية الى مملكة اسلامية فانهصر نفوذ طائفة رجال الدين المسيحي فى بلاد النوبة نتيجة لاقبال الشعب النوبى على الاسلام واقتصر نشاطهم على ممارسة شعائهم فى كنائسهم وحل محلهم علماء الدين الاسلامى ، الذين أخذوا أماكنهم فى المساجد التى شيدت داخل بلاد النوبة (٢٤) .

العامة :

تعددت فئات الشعب من العامة فى المجتمع النوبى التى ضمت عناصر مختلفة انصهروا فى بوتقة واحدة وكونوا عامة المجتمع النوبى من فلاحين وصيادين ورعاة (٢٥)

الفلاحون : تمثل هذه الفئة الأغلبية بين طبقات المجتمع النوبى وغدت طبقة الفلاحين من أهم الفئات التى تنظم فى سلك المجتمع الأفريقى النوبى ، فكان منهم من يفلحون فى الأرض

ويقومون بزراعتها حيث توجد في هذه المنطقة أرضا ذات خصب وافر نظرا لوجود نهر النيل وروافده المختلفة بها (٢٦) .

أما الصيادون : وهم من بين فئات الشعب الأخرى داخل المجتمع النوبى يمتنون حرفة الصيد وكانوا يصيدون في أماكن متعددة من النهر بروافده ، وكان الصيادون يقومون بالملاحة في منطقة الجنادل فهم على دراية بجغرافية المنطقة ويتخذون منها أماكن لتكسبهم وكانت هذه الجنادل بها كثير من الحجر لا تسلكها المراكب إلا بالحيلة وخاصة المراكب الصغيرة ، وكان الصيادون على دراية بطرق بسير هذه المراكب وإخراجها من منطقة الجنادل إلى مجرى النهر الرئيسى وقد امتزج هؤلاء الصيادون مع باقى فئات الشعب المختلفة (٢٧) .

وبالإضافة الى الفلاحين والصيادين وجدت كذلك فئة عاشت الفئات الأخرى وكونت معهم المجتمع النوبى وهى فئة الرعاة الذين كانوا يقومون برعى قطعان الإبل الموجودة فى النوبة بينها وبين صحراء عذاب حيث تنتشر النجب الكثيرة وقد أشار كثير من المؤرخين الى وجود النجب البختية التى تنسب إلى قرية بخته من أعمال النوبة وتقع بين عذاب والنوبة وكان هؤلاء الرعاة يسبحون فى الجهات الغربية من بلاد النوبة حتى دارفور طلبا للمرعى فى كثير من غابات وأحراش تلك الجهات وكثيرا ما كان يذهب الرعاة إليها وقد عرف درب بها يودى إلى طريق بلاد السودان الغربى والأخذ من دارفور (٢٨) .

وتعد المنشآت بأنواعها المختلفة مظهرا ودليلا على المستوى الحضارى الذى يحققه مجتمع بذاته ، وقد أشار بعض المؤرخين إلى منشآت عمرانية مختلفة كالكنائس والمساجد وغيرها من العماير الدينية الى جانب المنشآت الحربية كالقلاع والحصون ، والعماير والمنشآت الخاصة كالقصور والمنازل من بيوتات العامة وذكروا أن بلاد النوبة قد شهدت إقامة مدن كانت على مستوى متواضع بالمقارنة مع المدن الإسلامية الأخرى ومع ذلك فقد كان بها قرى عامرة فكان بين حدود مصر ودقلة نحو ثلاثين قرية بالأبنية الحسان والكنائس والأديار والنخيل والأعذاب والكروم (٢٩) .

واختصت منشآت المجتمع النوبى بخصائص معينة فلم تكن على شاكلة المنشآت الأخرى التى كانت توجد فى مجتمعات ذات تحضر ورقى فهم مثلا لا يعرفون المباني الفاخرة ولا

المدارس مثل القاهرة ودمشق والقيروان ، بل كانت مبانيهم ومنشآتهم غاية فى البساطة بما يتلائم مع حياتهم ومع ذلك فقد وجدت القصور والكنائس والمساجد ودور العامة ، ووجدت بالنوبة المنشآت الحربية وخاصة القلاع التى تحمى البلاد وأهم القلاع والحصون التى وجدت فى بلاد النوبة : (٣٠) .

- قلعة الدو : وتقع هذه القلعة ما بين دنقلة وأسوان وتعد من أول التحصينات العسكرية فى بلاد النوبة (٣١) .

- حصن بلاق : وهو من الحصون النوبية المنيعة ويقع بالقرب من قرية بلاق . وهى أول بلاد النوبة من ناحية الحدود المصرية (٣٢) .

وشهدت بلاد النوبة أيضا عددا من المنشآت الدينية كان من أهمها الكنائس التى كان لها دور هام بين أبناء الشعب النوبى قبل دخول الإسلام . وقد ذكرت المصادر وجود الكنائس فى كثير من المدن النوبية وقد عدد أبو صالح الأرمنى عدد كنائسها بأربعمئة كنيسة أما الرحالة والجغرافيون فقد ذكروا أنه يوجد فى النوبة كنائس إلا أنهم لم يذكروا ذلك العدد الضخم ، وأشاروا إلى كنيسة (أسوس) وهى من أكبر الكنائس النوبية قاطبة ، وكانت توجد فى دنقلة حيث يقام فيها حفلات التتويج وحفلات الزفاف والصلوات وغيرها من المراسم الدينية التى تعقد فى الكنائس .

ومن أهم المدن التى يوجد بها كنائس : مدينة بلاق وهى من أعمال النوبة ومن ناحية صعيد مصر هذا فضلا عن وجود البيع فى قرى النوبة والأسقييات فنكر المقريزى فى خطته الأسقفية الموجودة فى قرية (بساى) وهى قرية كبيرة لها مساحة " (٣٣) .

أما المساجد فقد انتشرت فى بلاد النوبة بعد دخول الإسلام إليها ، وأخذ المسجد دوره الطبيعى حيث كان يعد دار دين ودنيا ، فيأتى إليه الغرباء ويجلس فيه للوعظ وكانت تقام فيه الدروس وحفلات العلم وكان بدنقلة مسجد كبير جامع تؤدى فيه الجمع والجماعات ويتخذ أبناء النوبة مركزا علميا يتدارسون فيه أمور دينهم ، وقد شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاح والخير : " فقال من لم يكن له اخ فليتخذ أخا نوبيا . وقد تنوعت مظاهر الحياة الاجتماعية داخل المجتمع النوبى واشتملت على جوانب مختلفة منها الألبسة والأطعمة وأهم

الحرف التى كان يزاولها أهل النوبة بالإضافة إلى عاداتهم وتقاليدهم . " ، وأشتملت على جوانب مختلفة منها الألبسة والأطعمة وأهم الحرف التى كان يزاولها أهل النوبة بالإضافة إلى عاداتهم وتقاليدهم .

وعاش الشعب النوبى حياة بدائية بسيطة خالية من الترف والأسراف بل يمكن القول أنهم كانوا يعيشون فى شظف من العيش نتيجة للظروف البيئية الصعبة المحيطة بهم كما أوضحت لنا المصادر الإسلامية هذا فقد ذكر صاحب صبح الأعشى فى حديثه عن مدينة دنقلة وأهلها فقال : " وأهلها فى شظف من العيش ، والحبوب عندهم قليلة إلا الذرة " .

الملابس :

يمثل الملبس واحدا من المظاهر الاجتماعية التى كانت سائدة فى بلاد النوبة على أن أهم الملابس التى كان يرتديها أهل النوبة الأزرق ويوجد عندهم بعض من الملابس التى تسمى ككاديك وهى أكسية غلاظ سوداء اللون ، وعرفوا بعض الألبسة القطنية التى يصنعونها محليا وخاصة فى قرية (بساى) .

تحدثنا بعض المصادر الاجتماعية عن للشعب النوبى وتصف لنا عاداتهم وتقاليدهم ، فكان لأهل النوبة ولع شديد بالطرب والدق على الطبول ، فيذكر أحمد بن المعظمى : أن أهل النوبة لهم ولع وميل شديد الى الطرب والدق على الدفوف والطبول .

كما ذكرت بعض المصادر وصفا للمرأة النوبية بأنه يوجد فيهن " جمال فائق وعرقهن طيب ليس كعرق باقى السودان وشفاهن رقاق وأفواههن صغار وشعورهن سبط بخلاف جميع السودان " . فان المجتمع النوبى كان مجتمعا بدائيا سادت حياته عادات وتقاليدهم وأوضاع بدائية ، وهو السمة الغالبة للمجتمعات الأفريقية بصفة عامة خلال العصور الوسطى ، ويعود ذلك بطبيعة الظروف البيئية المحيطة بهم .

العلاقات الثقافية :

كانت مصر دائما ولا تزال مصدر إشعاع حضارى للقارة الأفريقية والبلاد العربية والإسلامية ، كما أن لمصر مسئولية حضارية اضطلعت بها على مر العصور ، ولم تقتصر

علاقتها على النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية فحسب بل امتد ذلك إلى النواحي الاقتصادية التى تشكل الجانب الأهم فى تلك العلاقات .

ويعزى ذلك بطبيعة الحال الى مركز مصر الحضارى ونقلها الفكرى الذى تمتد جذوره الى التاريخ القديم .

إن حضارة مصر عبر عصورها المختلفة كان لها تأثيرها القوى الذى امتد الى أعماق القارة الأفريقية ، وكان نقل هذه الحضارة الى أجزاء القارة ظاهرة تاريخية سجلتها كتب المؤرخين وكتب الرحالة والجغرافيين ، امتد أثرها إلى نواحي الحياة المختلفة ، ولمس الباحث ذلك التأثير بشكل كبير فى النواحي الإدارية والثقافية والعلمية وغيرها .

كان للروابط الثقافية بين مصر وجيرانها فى الجنوب الأثر الأكبر فى ظهور النقلة الحضارية التى شهدتها تلك البلاد ، وقد اتضح ذلك فى المجتمع الأفريقى وبصفة خاصة فى بلاد الطراز الإسلامى ولقد كان للإدارة المصرية ونظمها ورسومها تأثير مباشر على تلك البلدان وقد تمثل فى دخول الأنظمة الإدارية المصرية الى تلك المناطق (٣٤) .

وهكذا تتأكد قوة الروابط ومتانة الصلات بين مصر وجيرانها فى جنوب الوادى والى تعميق تلك الروابط السياسية الودية وقد أشاد كثير من المؤرخين بالدور المصرى فى داخل المجتمع الأفريقى وأثره فى تقدم تلك المناطق فى المجال الحربى والإدارى للدولة حيث مصر من إحدى القوى العظمى فى عالم ذلك الوقت واستطاعت أن تؤثر فى مجتمع العصور الوسطى بنظمها الاقتصادية والسياسية والحضارية ، وكان هذا التقدم الحضارى ملموسا واضحا مؤثرا فى مصر باعتبارها فى ذلك الحين حامية للحرمين الشريفين بجانب سيطرتها على البحر الأحمر واقتصادياته .

أما العلاقات الثقافية بين مصر وجنوب الوادى فقد صارت فى شقين أساسيين (٣٥) .

- (١) الشق الأول : حيث امتداد اشراقه الاسلام إلى بلاد النوبة وسودان وادى النيل *
- (٢) الشق المسيحى : وهذا الأخير قد تمثل فى الكنيسة الحبشية وارتباطها ارتباطا وثيقا مع كنيسة الإسكندرية بمصر وبما تمثله لها من قيمة تاريخية ودينية وثقافية وعلمية الأمر

* على نحو ما سوف يرد تفصيله فى موضوع لاحق . " للباحث "

الذى يجدر بنا أن نركز عليه وبصفة خاصة الصلات التى توطدت بين الكنيستين ، حتى نخرج بنتيجة ملموسة فى تأثيرها الحضارى فى بلاد الحبشة ، وعلاقتها مع الممالك الحبشية الإسلامية والمسيحية وتأثرهم باللغة العربية والثقافية المسيحية والإسلامية والعلاقة بينهم وبين علماء مصر وكذلك تأثرهم بالعلاقات المسيحية والثقافية المصرية القبطية ودور الكنيسة الحضارى والثقافى ومدى احتياجهم لهذه الروابط والصلات الحضارية . وقد ازدهرت حركة الترجمة خلال العصور الوسطى وبالتحديد فى القرن الثالث عشر وبدايات الرابع عشر الميلاديين وخاصة أن الكنيسة المصرية فى ذلك الوقت كانت تمر بحركة إصلاح وتجديد شاملة داخل أروقته . وخاصة من التدهور الذى أصاب اللغة القبطية التى اعتمدت عليها كتاباتهم بشكل واضح ، وإحلال اللغة العربية مكانها ، والتى أصبحت اللغة الأساسية للدولة . كل هذه الأسباب أسهمت فى ازدهار العلاقات الثقافية العلمية بين مصر وجنوب الوادى . وبعد تعيين المطران المصرى الأنبا سلامة الثانى ، أخذ على عاتقه ترجمة كثير من الكتب من اللغة العربية والقبطية الى اللغة الحبشية لدرجة أن لقبه الأقباط بلقب (ترجمامى) أى المترجم ويستدل على ذلك مما قد تم نقله فى عهود سابقة عليه ونقح كثيرا من تلك الترجمات ، وكتب أيضا الكتاب المقدس باللغة العربية ونقل كتب الصقوس والميامير (المسير) وحياة الشهداء والقديسين (السككنسار) هذا بالإضافة الى نقل صحف الرهبنة من العربية الى الحبشية (٣٦) .

خاتمة :

ارتبط انتشار الاسلام فى الساحل الشرقى وأفريقية بانتشار اللغة العربية التى حملها اليهم الوافدون العرب عن طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى ، واستوطنوا هناك وكونوا بامتزاجهم مع إخوانهم الأفارقة شعبا جديدا له خصائصه وحياته الثقافية ثم أصبح له فيما بعد لغته وحضارته ، وثقافته والتى عرفت فى نهايات القرن الخامس عشر باللغة والحضارة السواحلية ، وكانت مزيجا بين اللغة العربية واللغة الحبشية بلهجاتها المختلفة والتى كانت تكتب كالعربية من اليمن الى الشمال وقد انتشرت هذه اللغة الجديدة فى الساحل الأفريقى ، وسيطرت عليها بلهجاتها فى القرن السادس عشر الميلادى (٣٧) .

واضطلع الأزهر بدور كبير فى تثقيف أبناء جنوب الوادى فكان أبناء الزيلع ومقدشيو وجبرت يشدون الرحال الى مصر ليتعلموا فى الأزهر الشريف ، وقد برز كثير منهم فى المجتمع المصرى ، فكان منهم أبو عبدالله الزيلعى ، الذى أفاد العمرى من معلوماته عن تلك

البلاد وقد نقل عنه القلقشندي كثيرا من المعلومات عن بلاد الزيلع وأمارات الطراز الإسلامي وثقافته وأحوالها ومعايش أهلها وكان طلاب العلم في هذه البلاد يذهبون إلى مصر والأزهر ويعودون بعد تحصيل العلم مما كان له أبلغ الأثر في انتشار الثقافة العربية في السودان (٣٨). وكان للمساجد دور كبير في ازدهار اللغة العربية والثقافة الإسلامية بين المجتمع الأفريقي حيث كانت تقام الشعائر الإسلامية بهذه اللغة في المساجد والتي أشاد بها كل من ابن بطوطة والمقريزي ، فذكر شهاب الدين أحمد بن عبد الخالق للمقريزي عمارة المساجد في أوقات وحلقات الدرس التي ينظمها العلماء من المصريين وغيرهم الذين يقيمون بالساحل الأفريقي (٣٩) .

لقد كان للإسلام واللغة العربية تأثير حضارى كبير في حياة الشعوب الأفريقية الإسلامية ، كما كان للثقافة المصرية المسيحية يد طولى في ازدهال كنيسة الحبشة خلال العصور الوسطى ، وكان لانتشار الثقافات العلمية المصرية بين الأبناء الوطنيين من الأقارقة ، ورغبة ملوك الحبشة في الوصول إلى العلوم الدينية القبطية التي ازدهرت في الكنيسة المصرية وبين أصحاب الفكر المسيحي . كما تجدر الإشارة إلى دور المطارنة المصريين الذين تولوا كنيسة الحبشة والذي ظهر بوضوح حيث أسهموا في حركة الترجمة التي غطت كثيرا من الكتب المصرية التي تم نقلها إلى اللغة الحبشية وأقتنت بذلك الكنيسة الحبشية ثروة عظيمة من أمهات الكتب المصرية القبطية (٤٠) .

وظهر أيضا الدور الإسلامي لمصر بثقافتها وثقلها الحضارى الذى أثر في ثقافة أفريقية كلها ، بالإضافة إلى ما قامت به اللغة العربية لغة الإسلام في تعليم الأقارقة في بلاد الزيلع والطراز الإسلامي ، وتأثر علماء وفقهاء تلك الممالك بالعلماء المصريين وشدهم الرحال إلى القاهرة لتلقى العلم في أزهارها الشريف وأخذ العلوم الدينية والدنيوية عن نخبة من أجل علماء مصر في تلك الحقبة التاريخية التي هي من أزهى عصور مصر بعلمائها الكثيرين الذين برزوا في شتى فروع العلوم المختلفة .

الهوامش والمراجع :

وراجع في تفصيل ذلك أيضا :

(١) ابن تغرى بردى : أبوالمحسن يوسف ت . ٥٨٧٤ / ١٤٦٩ م .

مورد الطاقة فيمن ولي السطنة والخلافة ، مخطوط مصور . (٥٣٥ تاريخ) معهد
المخطوطات العربية .

المسعودى ت . (٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) .

أخبار الزمان وعجائب البلدان ، مخطوط مصور : تاريخ ٨٧٩ . تاريخ ٨٧٩ . الهيئة
المصرية العامة للكتاب .

راجع فى تفصيل ذلك أيضا :

- كولين ماكفيدى : أطلس التاريخ الأفريقى ، ترجمة مختار السويفى ، القاهرة ، ١٩٨٧ ،
ص ٩٥ .

- مكى شببكة : مملكة الفونج الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٧ .

(٢) راجع فى تفصيل ذلك :

- بدر الدين العينى : عقد الجمان ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ١٠٥ .

- مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٤٥ .

(٣) المقرئى : البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب طبعة الاسكندرية ١٩٧٩
ص ١٢٥ .

(٤) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٩٣ .

(٥) ج فانتينسى : تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية والسودان الحديث ، الخرطوم ،
١٩٧٨ ، ص ١٩٦٢ .

(٦) ج فانتينسى : المرجع السابق ص ١٦٣ .

(٧) عبدالرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٠ .

(٨) النويرى شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج ٣١ ،
طبعة القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ٢٥ .

(٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوى السلطان الأكبر ، مجلد (٥) دار الكتاب ، اللباني ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٨٦٢ .

(١٠) راجع فى تفصيل ذلك :

- دكتور / حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية ، طبعة ثانية ،
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص ١٨ .

(١١) ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم : تاريخ ابن الفرات ، حققه قسطنطين
رزق المطبعة الأمريكية ، بيروت ١٩٤٢ ، ص ص ٤٦ ، ٤٨ .

- (١٢) تاريخ بن الفرات : مرجع سابق ص ٤٨ .
- مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى بحث فى تاريخ السودان وحضارته فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٨ .
- (١٣) - النوبدى : نهاية الأرب ج ٣١ ، مرجع سابق ص ٣٩ .
- ابن الفرات : مرجع سابق ص ٨٢ .
- (١٤) - المقرئى : مرجع سابق ص ص ٧٤٩ : ٧٥٢ .
- ابن الفرات : مرجع سابق ص ٩٨ .
- دكتور / عبدالرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٢٠ .
- (١٥) - دكتور مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ، مرجع سابق ، ص ١٥٣ .
- ابن خلدون : مجلد (٥) مرجع سابق ص ٨٦٤ .
- (١٦) المقرئى : البيان والأعراب ، مرجع سابق ص ص ٤٨ : ٥٠ .
- (١٧) المقرئى : المرجع السابق ص ١٦٢ .
- (١٨) - ابن حجر العسقلانى : أنباء الغمر بأبناء العمر فى التاريخ طبعة بيروت ١٩٨٦ . ص ٢٧٠ .
- ابن خلدون : مرجع سابق ص ٩٢١ .
- (١٩) - سليمان عطية : سياسة المماليك فى البحر الأحمر حتى نهاية عصر السلطان برمباى رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٢٨٢ .
- (٢٠) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة دت ، ص ٩٣ .
- (٢١) المقرئى : البيان والأعراب ، مرجع سابق ص ٢٥٩ .
- (٢٢) ج فالنتيني : مرجع سابق ص ١٦٣ .
- (٢٣) المقرئى : البيان والأعراب ، مرجع سابق ص ٣ .
- (٢٤) ابن اياس : نشق الأزهار فى عجائب الأمصار ، مخطوط مصدر - جغرافيا الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ص ٢٨٩ .
- عبدالرحمن زكى : الاسلام والمسلمون شرق أفريقيا ، مرجع سابق ، ص ٤٥٠ .
- دكتور / جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ص ١٥٦ ، ١٥٧ .
- (٢٥) المقرئى : البيان والأعراب ، مرجع سابق ، ص ١٢٣ .

- (٢٦) المقرئى : البيان والأعراب ، مرجع سابق ، ص ١٥٠ .
- (٢٧) المقرئى : مرجع سابق ص ٧٥١ .
- (٢٨) المقرئى : مرجع سابق ص ١٩٢ .
- (٢٩) المقرئى : ص ١٩١ .
- (٣٠) حسن عبدالوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص ١٣٥ .
- (٣١) ابن اياس : ج ٣ ، مرجع سابق ص ٢٩ .
- (٣٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٥١ .
- (٣٣) المقرئى : مرجع سابق ص ١٩١ .
- (٣٤) د. عبدالشافى غنيم عبدالقادر : البحر الأحمر طريقا للدعوة الإسلامية ، سمنار البحر الأحمر ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٦٠ .
- (٣٥) أنتونى عبدالسيد : الكنيسة المصرية القبطية وكنيسة أثيوبيا ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ١٦ .
- (٣٦) د. جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٤٩ .
- (٣٧) د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٤٩ .
- (٣٨) دكتور / سيد محمد عبدالمعصم : دول إسلامية فى شرق أفريقيا ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٦٠ .
- (٣٩) السخاوى : التبر المسبوك ج ١٠ ، مرجع سابق ص ١١١ .
- (٤٠) وداد نصر : مدينة تمبكت : رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة . ١٩٨٦ ، ص ٢٣٣ .

وقد اعتمدنا فى هذه الدراسة أيضا على : نهلة أنيس محمد مصطفى ، العلاقات بين مصر والممالك الأفريقية فى عصر دولة المماليك الجراكسة ٧٨٤-٩٣٣ هـ / ١٣٨٣ - ١٥١٧ م ، كلية الدراسات الإسلامية الانسانية جامعة الأزهر ، ١٩٩٥ ص ٣٧ - ٣٩ ، ٢٣٣ - ٢٤٥ .